أوراق مبعثرة

اقتربت الطائرة من مطار الأقصر، إنها المرة الأولى التي أزور فيها مصر وبالتحديد بيت والدي في الصعيد، فتحتُ حقيبتي الصغيرة، أخرجت مجموعة من الأوراق تحمل اسمي وتثبت نسبي لأبي المصري، ومجموعة أخرى تثبت أن لي حقاً في أرض الصعيد البعيدة، نظرت إلى الأوراق في يدي، تساءلت: هل تستطيع هذه الأوراق أن تتحول إلى أموال ؟!

بعد رحيل أمي ومرض أبي الشديد، تغير الكثير بشكل تدريجي؛ شح المال، تنقلت في العمل من مكان إلى آخر، كنت أحتاج إلى المال، وحاجة الإنسان تجبره أحياناً على تقديم تنازلات كثيرة، علمني أبي أنني مصرية تعيش في إيطاليا، رغم المسافات البعيدة هناك رابط خفي بأخلاق الصعيد، مرض أبي كان يتطلب المال، بعت كل الذهب الذي كانت تمتلكه أمي، احتفظت ـ فقط ـ بقلادة فيها صورتها، وبعد دخول أبي المستشفى، بدأت في بيع أثاث البيت.

يبدو أن أبي شعر بمعاناتي الشديدة، رحل في هدوء، كان رحيله

صـدمة لـي، لقد كان كل شيء والآن لم يعد هناك أي شيء، قررتُ السـفر إلى الصعيد لدفن أبي، قالها لي: لقد حرمت من مصر حياً ولا أريد أن أحرم منها ميتاً. . أريد أن يحتضنني تراب الصعيد.

هـبطت الطائـرة، أنهيت كـل الإجـراءات، اسـتلمت الصندوق الضـخم الـذي يضـم جثمان أبي، كان الطريق إلى بيت العائلة طويلاً موحشـاً، البيت الذي لا أعرفه ولا أعرف فيه أحداً، شعرت بالخوف والقلـق، انقـبض قلـبي حـين وضع السائق الجثمان أمام باب البيت، طلبت منه أن ينصرف، لا أريده أن يرى مراسم الاستقبال الحزينة لي!

طـرقت الـباب، خـرج رجل يرتدي خيمة سوداء، جلباباً شديد الاتسـاع، تأملـته كان يشبه أبي إلى حد بعيد، سألني باستغراب: من أنت؟!

انعقـد لسـاني، تمكـن الخـوف مـني، فـتحت حقيـبتي الصغيرة أخـرجت مـنها ورقـة ميلادي، ناولتها له وأنا أخبره من أكون، كنت أرتـدي ثـوباً أسود، كانت خصلات شعري الصفراء تكسر حدة هذا اللـون القاسـي، شـعرت بالعـرق يـبلل ثوبي وشعري، لا أعرف رد الـرجل، مـاذا سـأفعل لـو رفـض اسـتقبالي واسـتقبال أبي، نظر إلى الصندوق، دخل البيت وأغلق الباب خلفه!

لم أتحرك، قدمي التصقت بالأرض، كيف سأحمل أبي وأرحل، وإلى أين سأرحل ؟

أنا لا أعرف مكاناً آخر ولا طريقاً آخر، مرت الدقائق كأنها ساعات طويلة ثقيلة، هل أخطأت العنوان ؟! وبينما أنا أنظر حولي انفتح الباب مرة أخرى، خرجت منه امرأة تتشح بالسواد، لم أر منها إلا اللون الأسود ووجهاً أسمر تبدو عليه ملامح الزمن، سألتني السؤال نفسه: من تكونين ؟ لم تختلف إجابتي، نظرت إلى الصندوق أمامي، كنت أتابعها بنظراتي، أخبرتها أن هذا الصندوق يضم جثمان أبي، وأنه أراد أن يدفن في مصر، وأن هذا رجاؤه الأخير، فتح الرجل الذي يشبه أبي الصندوق، نظرت المرأة إلى وجه أبي ثم أغلقت الصندوق مرة أخرى، جلست على الأرض، احتضنت الصندوق بكلتا يديها، بكت، رأيت دموعها: ولدي.. غادرت رجلاً وعدت لنا جثة.

ملامحك لم تتغير.. أعرفك تماماً.. لم أنسك لحظة واحدة رغم الألم الذي خلفته في قلبي وقلب أبيك حين اخترت الرحيل رافضاً كل البدائل.. هجرت الصعيد.. قررت أن تتزوج بعيداً وحيداً.. أعوام طويلة مضت.. كيف سأعرفها ؟!

توقفت دموعها، نهضت، نظرت نحوي مرة أخرى، تأملتني: لست منا.. البشرة السمراء والشعر المجعد والعيون السوداء لا تنجب شعراً أصفر وعيوناً زرقاء وبشرة بيضاء.. هذه الملامح لا تنتمي لنا.. هذه الملامح كانت اللعنة التي رحلت بولدي.. لا نعرف منك إلا الاسم فقط، هذا الاسم اختار لنفسه الرحيل، خرج من هنا رجلاً وعاد تحمله النساء.

كانت كلماتها شديدة القسوة، ولكنني عذرتها، دخلتْ البيت، أغلقوا البٰاب مرة أخرى، باب البيت الذي لم أدخله.، أخرجتُ القلادة التي تحمل صورة أمي، والتي كانت مختفية خلف ثوبي الأسود، وقبلتها.

لم أتحرك، لم يكن أمامي إلا أن أنتظر، مرت دقائق طويلة قبل أن ينفتح الباب مرة أخرى، ظهر شاب أسمر، حلو الملامح، لا يرتدى جلباباً، يرتدي ملابس حديثة، اقترب مني، مد يده مصافحاً، صافحته، شعرت بأنني لا أريد أن أترك يده، إنها أول يد تمتد إليّ في هذا البيت، قدَّم لي نفسه، يحمل لقب العائلة، لا أعرف لماذا بدأت أشعر بالأمان، حمل جثمان أبي بمساعدة رجل آخر، وضعه في سيارة كانت تقف أمام البيت، ركبت معه، عرفت أنهم سيدفنون أبي، تنفست الصعداء.

حيث توقفت السيارة وجدت قبراً لأبي يحمل اسمه، كأنه ينتظر قدومه، وضعوا الجثة تحت التراب، شعرت الآن فقط أن أبي قد مات، عندما انتهوا بدأت أشعر بالراحة، تحقق لأبي ما أراد، نفذت وصيته، ضممت الحجر الذي كُتب عليه اسم أبي إلى صدري، قَبَّلته، أعرف أنها مجرد أحجار وأن ما وراءها جسد قد مضى، ولكن هذا القبر صار يضم أبي، لن يبق من الجسد سوى لوح حجري عليه اسمه، تحتفظ به مقبرة العائلة على أرض الصعيد.

أخرجت الأوراق التي جئت بها من حقيبتي، ناولتها اليد التي صافحتني، اليد التي امتدت إليّ بالسلام وأنا أتساءل: هل ستفعل هذه الأوراق شيئاً؟

نظر فيها، حَرَّك رأسه بالنفي، كنت أعرف، رفضت أن أمسك بالأوراق، تركتها بين يديه، تسمرت قدماي مرة أخرى، نظرت إلى قبر أبي، تساءلت: قلت لي إن أرض الصعيد لا تتخلى عن أبنائها، هل تخلت الصعيد عني؟

داعب الهواء الساخن شعري، حاول أن يجفف دموعي المنهمرة، قَبَّلت نقش الاسم على الحجر، استنشقت الهواء، كان يحمل رائحة أبي.